السفير
هذا الأسبوع
تاريخ العدد ٢٠٠٨/١٠/١٠ العدد ١١١٣٠

جداريات ولوحات تخلّد المقابر الجماعية والمجازر

ثياب الموتى لا تكبر ولا تهترئ

جاكلين سلام

ما أكثر المقابر المجازر في العالم، فكم مشروعاً فنياً يحتاج الإنسان والفنان في الشرق كي يتحدث للعالم عن مجزرة دير ياسين، صبرا وشاتيلا، حلبجة، جنين، والمقابر الجماعية؟ الذاكرة خائنة والحقائق تطمر. ماذا يستطيع الفنان أن يفعل حيال صورة مجزرة صبرا وشاتيلا بعد ٢٦ عاماً التي تصادف في ١٦-١٩ سبتمبر؟ أتراها الفنون تقدر على أن تعلمنا الحياة والابتسام لشمس الصباحات، للمستقبل!

لا كلمة أشدّ مرارة من خرافة الوضع العربي والفلسطيني تحديداً من كلمة كتبها الياس خوري في مقالته في القدس العربي وفي ذكرى المجزرة إذ يقول »بدل الذاكرة جاءت المزبلة. وبدل تكريم الضحايا تمت إهانة ذكراهم، فالموت الفلسطيني لا ينتهي بالموت، لأنه يرافق الأموات بعد موتهم«!

المجازر والطغاة العمالقة في الشرق لهم إخوة وأشباه في الغرب. هنا وقفة مع الأرجنتين وأوجاعها من خلال الصورة الفوتوغرافية واللوحة التشكيلية والتنسيقات الفنية.

الفن يقاوم الموت بلا أسلحة وبلا عنف. الصورة تذكّر وتعيد الحياة للمفقودين الذين ابتلعتهم الحروب وأيادي الطغاة وطغمتهم. هذا ما لمسناه في عرض فني بعنوان »جدران الأسى/جدران الأمل« الذي أقيم في أحد مراكز جامعة تورنتو حيث كانت ندوة عن مخلفات الحرب ودور الفن في التذكير بالحياة، إنعاش الذاكرة والعمل جماعياً فنياً واجتماعياً، وذلك من خلال أعمال الفنانة الأرجنتينية الأصل »كلوديا برناردي« وسيرتها. حضرتُ العرض لأرى كيف يتعامل فنانو العالم مع المجازر والعنف الأهلي والحروب في بلادهم. رحتُ أتصفح الوجوه كأنني أريد أن أعرف ما الذي دفع هؤلاء للحضور، أتراهم نجوا من حرب ومجزرة يوماً ما، أتراهم فقدوا في المجازر عزيزاً أو وطناً! حضور مختلف الجنسيات والأعمال حضر ليشهد على صور الحرب وأشغال الذاكرة عبر شاشة منصوبة في الصالة. كانت الفنانة تعرض سلايدات وأعمالاً فنية وصوراً فوتوغرافية توثق الحرب الأهلية والمجازر والمقابر الجماعية التي حصلت في الأرجنتين في الثمانينيات. الفنانة التي تقع أعمالها في خانة »المقاومة عبر الفن« تحدثت عن دور الفن في تحدي السياسة، تحدثت عن حفظ الذاكرة الجمعية، ذاكرة الإنسان الذي سمع وشهد وفقد ومن ذهب ضحية لحروب يشعلها الديكتاتوريون. وعن أهمية أن تعيش هذه الذاكرة وتنقل صوتاً وصورة وفناً إلى الأجيال القادمة.

عرضت بعض صور المفقودين في تلك الحروب التي تقول عنها »حروب قذرة«. تحدثت عن المجازر والمقابر الجماعية على وجه الخصوص، من خلال مشاهدتها العيانية وعملها الميداني مع فريق انتربولوجي يقوم على فحص بقايا الجثث المطمورة في بطن المقابر الجماعية، وذلك للتعرف على هوية الضحية. الفنانة كانت تعمل مع أختها الصغيرة وشباب آخرين في هذا البحث الموجع المرعب. صور نرى فيها الشابة جالسة في حضن الأرض ومن حولها أطراف وعظام وجماجم، تحاول بهدوء وحذر أن تزيل عنها التراب لتذهب بها للدرس والتحليل. ومن بين العظام والأقفاص الصدرية للأطفال كانت إحداهن تنتشل قميصاً، ثوباً وحذاء لطفلة. تنقل هذه الأثواب وفردات الأحذية ليجعلوا منها تشكيلات فنية موجعة. ثياب الموتى لا تكبر ولا تهترئ بسرعة. بهدوء وثقة كانت تتحدث كلوديا برناردي عن أهمية أن تجعل من ذلك صورة حية تنطق فنياً، لتجوب بها دول العالم، وبخاصة البلاد التي خنقتها الحروب، أو خرجت حديثاً من حرب. كانت تحكي للحضور باقتضاب كيف كان رجال المليشيات يأتون ليفصلوا الآباء عن الأبناء، الأمهات والفتيات، ويصار إلى قتلهم بعدها ورميهم في مقابر جماعية عديدة. بعضهم مما لا علاقة له بالسياسة إطلاقاً، وبعضهم كان منتمياً إلى اليسار. كانت هناك صور فوتوغرافية كثيرة توثق وجوهاً وشخصيات وأمكنة.

لهذه الرسالة الإنسانية كرّست برناردي التي فقدت كل أفراد عائلتها، طاقتها وألمها وأملها، وذلك من خلال الفن صورة ورقصاً ودروساً تعليمية ومحاضرات. وهي التي حصلت على شهادة دكتوراه فخرية في الفنون، وعملت بالتعاون مع نساء أخريات لتأسيس مدرسة فنون في الأحياء الفقيرة في السلفادور، وراحت تعمل مع الأهالي والنساء والشباب لخلق مساحة لهم للتعبير عن دواخلهم، لتقديم صور عن الحرب الأهلية من خلال رسم جداريات مشتركة. جداريات تحيد عن العنف وتمجد العيش المشترك والسلام. جداريات لا تنتقم، بل تروي الحقيقة وتحلم بالغد.

تقول برناردي إن هذا المشروع الفني، اجتماعي إنساني بالدرجة الأولى، والجميع بنظرها يحمل ذاكرة ويستطيع أن يرسم حكاية في جدار الألم وفي جدار الأمل حتى وإن لم يكن فناناً يوماً. وتركّز في مشروعها على التذكير بأسماء النساء والشباب الذين ما يزالون في عداد المفقودين. ومن خلال الصور والسلايدات نقلتنا لحضور الاحتفال بإحياء ذكرى تلك المجازر. رأينا الأطفال يشعلون الشموع ويرددون عن ظهر قلب أسماء الأطفال الذين هم في عداد المفقودين وأعمارهم.

كانت برناردي تقول »من قال إنّنا ننسى، من قال كلّ شيء ضاع«.

المجازر والمقابر الجماعية تصلح موضوعاً للفن وللتذكير بنعمة الحياة. ويبقى أفق الفن أرحب من أفق آلهة الحروب. الشمعة الوحيدة في الصور التي عرضتها الفنانة كانت تضيء مساحة كبيرة من العتمة. العتمة الشاسعة تنهار أمام النور. نور الفن والأمل. الأمل الذي بدا قوياً وحاضراً في صوت الفنانة النحيفة ونظراتها القوية التي تغالب الحزن.

أحد الحضور سأل كلوديا برناردي: »تبدين متفائلة كثيراً، هل أنت هكذا حقاً؟«

فأجابت وهي تضحك: »نعم أنا متفائلة، لقد علمتني التجربة مع النساء اللواتي فقدن أطفالاً وشبابا، أن أبتسم. رأيتهن بأم عيني يبتسمن...« وأضافت »الديكتاتوريون يريدوننا أن نبقى حزانى، لكننا لن نفعل«.
الفنانة والأكاديمية الارجنتينية كلوديا برناردي كانت تعمل في تورنتو برفقة »جولي جارفيس« للإشراف على إنجاز جدارية يرسمها شباب في تورنتو ـ كندا، من خمس قارات، يعكسون من خلالها قيمة »فن الجماعات« للتعبير عن الألم والأمل. كما أنها افتتحت أول مدرسة للعناية بهذا الفن في أحياء السلفادور الفقيرة وهي تموله من عائدات عملها والتبرعات. تدرّس الفنون أيضاً في معاهد وكليات في كندا وأميركا والارجنتين حيث تقيم متنقلة، حاملة معها جدرانها. جدران فنية زاخرة بالجمال، تجوب بها قارات ودولاً أنهكتها الحروب.
تعرفنا كقراء عرب على روائع مترجمة من آداب أميركا اللاتينية والقادم من تلك الرقعة الجغرافية التي تعد »عالماً ثالثاً«، ووجدنا فيها كنوزاً غنية. وفي هذه الصفحة الفنية نقع على مساحة تلامس مساحات معتمة من أوجاع شرقنا العربي الذي يقاوم الموت أيضاً وبأكثر من وسيلة.
(شاعرة سورية مقيمة في كندا)